

كتب جديدة

ثورة على الفكر العربي المعاصر

بقلم محيي الدين محمد . المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٤

والمحاجاة وطلب تحقيق العدالة والحرية . وفي هذا الفصل يشدد على الذهن القيادي للمفكرين والمسؤولية التي يجب ان يعيها هؤلاء في تغيير الذهن العام واخضاعه لقوانين العلم والمنطق . ولعل ابرز فكرة يمكن تنبيه المؤلف لحساسيتها هي تلك التي يدعو بها الى رفض ماضينا وحاضرنا وتاريخنا وكف الاذهان الخلاقة عن العمل وضرورة تحولها الى الترجمة (ص ٢٠) ، هذا مع العلم ان الفكر الغربي ذاته بعد صدمته بالآلية المعاصرة ، من خلال مناهجه ، اضحى يتشوق بالحاح الى ما يمكنه ان يتأتى من فكر انساني اكثر اخلاقية وصلاحا للعالم من خلال تفكيرنا التاريخي واخلاقيته المتدنية . ولكم كان البحث اعظم واكثر وعيا للمسؤولية لو ان الكاتب اتخذ موقف المراقب المحلل للزعة المتدنية واشكال انحرافاتها المختلفة التي تعمق التقدم الاجتماعي وتحد من انسجام مجتمعاتنا مع متطلبات عصر الآلة الحديث . خاصة وان الحرافات التي كانت تستعين ببعض المتدينين لم يعد لها مكان بين غالبية المثقفين في البلاد العربية ، سوى ان استغلال الرابطة الدينية في بسطاء الشعب هو الذي دام بارز الغرضية ، كما ادرك المؤلف في نص الدستور على دين الدولة الرسمي (ص ٣٧) .

وفي الفصل الثاني « هوم الشباب » يأخذ محيي الدين محمد على الشباب المصري لاداريته وتسليمه بالامور بروح متخاذلة . ويعزو ذلك الى الروح التي تسود كليات الجامعات المصرية . وهنا يضع اصبعه على صمام المشكلة ، ويطالب الدولة بالتخطيط الواعي والتوجيه الفعال للتربية . ثم في فصل « ازمة الاديب في المجتمع » ينبه الى وطأة الوضع الاجتماعي

تهنئة حارة لمحيي الدين محمد لكتابه « ثورة على الفكر العربي المعاصر » ، فهو حقاً ثورة لاجل فكر عربي معاصر . ولا اکت تقديرى واعجابي بثورة هذا الاديب العربي المثقف . فقد يثور الكثيرون من ادباثنا ومثقفينا ، لكني لم المس للآن ثورة تساندها مثل ثقافة محيي الدين محمد وتقودها جرأة كجراته على تسمية زوايا الجمود والتحجر في الذات العربية المعاصرة .

فهو يبدو في بعض فصول هذا الكتاب غمرداً يشير بصراحة ووضوح الى مناح حساسة لم يسبق الى الاشارة لها احد قبله بثل جرأته ووضوحه . فهو كما يلاحظ على استعداد للصمود امام اي اعصار قد يهب عليه . فمرحى لهذه الجرأة ، مهما كانت عواقبها وتبعاتها ، اذ يمثلها فقط تبنى المجتمعات . ان الكتاب مبدأ وليس مادة . هو مبدأ ما احراه بان يكون شعارا لكتابنا ومثقفينا . ففيه جرأة الفكر مع سعة الثقافة وتنوع مصادرها ووجوها ، مما يجعل القارئ يقف باحترام امام اية فكرة فيه مهما عارض هذه الفكرة واختلف مع المؤلف في جوهرها . وهو بفصوله وتفصيلها يؤكد على وحدة الثقافة العالمية المعاصرة في حقل الفن والفكر ، كوحدها في مقولات العلم ومعطيات المنطق وتجارب المختبر .

الفصل الاول في الكتاب « ثورة على الفكر العربي المعاصر » توجزه هذه الفقرة : « تغيير التراث العربي جميعه ، ليتمكن للعقل ان يقفز من محدودية الحرافة والتسليم والرضى ، وهو مظهر من اشد المظاهر الانسانية تعاسة وخزيا ، الى انطلاق العقل

على الاديب وشعوره العنيف باللاحرية . وهنا نحس باصالة الكاتب ، اذ نجدد وكأنه يكاد يخشع بما يريد ان يوضحه ، فيردد في نهاية الفصل بان ليست هناك قوة في الارض تمنع الاديب من التعبير والقول . ويأتي فصل « مشكلة حرية الفكر » مكملا لموضوع الحرية التي يطالب بها ويلج على ضرورة وجودها . فيختم الفصل بقوله : « يحتم ان نناقش ونصرخ ونجادل ونكتب ونناقض وندافع ونستमित في سبيل اظهار الحقيقة . ولتتقدم السلطة فتسجن اجسادنا وتشقنا ، فذلك بالذات هو انتصارنا ، وشرفنا » .

وهنا مع فكرة الحرية اشير الى ان الاستاذ محي الدين محمد يعين نوع الحرية ، ويحصر مطالبته في عالم الفكر لاجل القضاء على تقليدية اجدادنا . وهو يرى ان لا بد من قتلى لهذه الغاية ، مستشهدا بمفكري اوربا الذين قارموا سلطة الصليب البشعة والتهديد بالحرق وقتل الاطفال وبترو اللسنة والشي احياء . هذا مع العلم بان انتشار منطق العلم الحديث في كل مرافق الثقافة للعالم العربي المعاصر يغني عن هذه الابدال الغالية التي يرتثيها المؤلف . ولا حاجة لنا الا لفكر نير قروي الحجة وافر النشاط واسع الاطلاع ، كي نضل الى مستوى صالح لخدمة المجتمع .

ويستعرض الانسان في التاريخ - في العصور القديمة ، والعصور الوسطى ، ثم العصر العقلي ، والحضارة الحديثة . وفي هذا العرض ثبت ان ليس هناك من قوانين ثابتة يمكن لها ان تحمل اسم الحقيقة الثابتة : « فما هو حقيقي في الانسان ليس الا جدارته الشخصية في رفض كل قالب سابق عليه » (ص ٩٦) . واني لا استطيع الا اكبائر نظرية المؤلف النسبية للحقائق الانسانية ، هذه النظرة التي تتيح للناس ان يفكروا بما يشاؤون وتجعل تطور الذهن الانساني العام هو السيد في تاريخ الانسان ، لا المقولات العقائدية .

وفي فصل عن الوجودية يقول في حديثه عن الفلسفة : « كانت الفلسفة في القديم تفضي اما الى الاخلاق المحضة ، واما الى الميتافيزيقا . اما الآن ، فان الفلسفة تعتبر نفسها ممرا الى الحرية الانسانية » .

ويبدو ان حسه المتورن نحو الحرية هو الذي حمله الى التمييز بين غالية الفلسفة في القديم والحديث ، فأرجو منه اعادة النظر بالتمييز بين الحرية والاخلاق والا وصلنا الى الحرية « المؤلمة » التي كان ينادي بها رجال الثورة الفرنسية كتهوية مقدسة لها معابدها وطقوسها دون حدود او مدلولات . وفي خاتمة الفصل يؤكد بحماس ان الجواب على التباسات الفكر « سينفجر من هنا ، من هذه الارض التي عرفت التنبؤات والاجوبة ؛ من ارض الطهر والحاسة ، سوف يطلق الشرقي من عقالة » . وهذا تفاؤل يحمد عليه لما فيه من رغبة انطلاق الى الابداع .

وفي « وجه عصرنا في القرن الغارب » يقول : « قرننا هو قرن التحول من منتهى الرخاوة العاطفية الى منتهى الصلابة الآلية » (ص ١٥٨) ، كما يرى بان الفن هو تسجيل امين لتوترنا ، وفي الوقت نفسه ايماء حزينة لتحولنا . ولعله من هنا ، اي من فكرته عن رسالة الفن ، ينطلق في فصول الكتاب الباقية لدراسة الآثار الفنية لعديد من الادياء والشعراء والفنانين في الغرب والشرق . ولعمري هو منطلق صحيح يتم عن قدرة نادرة على الاستقطاب والتركيز المسؤول لدى المؤلف . وبإيمان كبير بالفن يورد قوله في صفحة ١٩٠ : « وجب على الفن ان يسهم في بتر القلق والتوتر الذي هو سبب اسامي لنكسة الفرد وتحوله الى عباداته الضمنية : العزلة ، مرض الاعصاب ، الجمود . اذ من الباطن فقط يمكن للفن ان يزيح هذا الحجر الثقيل من فوق القلب البشري المعذب ؛ فللفن فقط هذه القدرة السحرية التي يمكنها ان تحول المرارة الى فرج والتوتر الى شعور دافق بالإيمان » . ومثل هذا القول لا يأتي الا عن ايمان رائع ينبعث عن حس فني اصيل يعيش في اعصاب المؤلف .

ولا شك بان هناك فصولا كثيرة هامة في الكتاب كان يمكنها ان تكون كتابا مستقلا في النقد والتحليل ، حيث يعرض فيها المؤلف ويحلل اعمالا فنية كبرى وهامة . فنكتفي بالاشارة لها بعد هذه الجولة القصيرة مع بعض الآراء الذاتية الجريئة